أحاديث الرحمة في الصحيحين – دراسة تحليلية -

م.م. أيمن ماجد صالح

وزارة التربية / المديرية العامة لتربية بغداد الكرخ ١

ayminmagid@gmail.com

الملخص:

إنَّ الرحمة من الصفات التي أمر الدين الإسلامي بالتخلق والتحلي بها لما لها من أثر فعال في بناء المجتمعات, واحياء المخلوقات. فالإسلام هو دين الرحمة؛ فهي صفة اتصف بها ربنا –عز وجل– واتصف بها رسولنا الكريم, ووصفه الله (بالرءوف الرحيم). فما من شيء يحتاجه أبناء المجتمع الاسلامي في الوقت الحاضر أكثر حاجة من هذه الصفة العظيمة للاستفادة منها في حياتهم العملية والعلمية, فما تفوق المسلمون على غيرهم إلا بحسن أخلاقهم واقتدائهم برسولهم الكريم. مع التأكيد على أن الاسلام الذي ارتضاه الله للناس إنَّما هو دين الرحمة والسلام لا دين ارهاب وسفك دماء. وقد جاءت الاحاديث الكثيرة عن الرسول الكريم تبين هذه الصفة ومكانتها ومكانة صاحبها. ولم تكن تلك الصفة الواردة في هذه الاحاديث تجاه الناس بعضهم ببعض فحسب, وإنَّما تتعدى إلى غيرهم من المخلوقات.

الكلمات المفتاحية : احاديث – الرحمة – الصحيحين .

Abstract:

Compassion is one of the qualities that the Islamic religion commands to create and be endowed with because of its effective impact in building societies and reviving creatures. Islam is the religion of mercy; It is an attribute that characterized our Lord - glory and majesty - and our noble Messenger, and God described him (the Compassionate, the Merciful). There is nothing that the members of the Islamic community need at the present time more than this great characteristic to benefit from in their practical and scientific lives. With the emphasis that Islam, which God has accepted for people, is a religion of mercy and peace, not a religion of terrorism and bloodshed. Many hadiths came from the Holy Prophet, showing this characteristic, its status, and the status of its owner.And that description mentioned in these hadiths was not only towards people towards each other, but rather it transcends to other creatures.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفه الله بأنه رؤوف رحيم، وهاد إلى صراط الله المستقيم، صلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه المستمسكين بسنته، المهتدين بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الرحمة من الخُلُق العظيم، أودعَها الربُّ في من شاءَ من خلقِه، وحُرِمَها الشقيُّ من الخلق، وقد رغَّب الإسلامُ في التخلُّق بالرحمة، ووعدَ الله على الرحمة بالأجر الكريم، والسعادة الدنيوية والأُخروية، والرحمةُ من أعظم خِصال الإيمان، وأجلِّ أنواع الإحسان. وهي صفةُ كمالٍ في المُكلَّف، اتَّصَف بكمالها نبيُّنا محمدٌ –صلى الله عليه وسلم–, وغيره من البشر دونَه في هذه الصفة العظيمة. وأما صفةُ الرحمة لربِّ العالمين، فنُثبِتُ معناها، وحقيقتَها على ما يليقُ بالله. فإن الله أرحم الراحمين، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

إن موضوع خلق الرحمة في غاية الأهمية، وإن الإنسانية جمعاء بحاجة في كل زمان ومكان إلى خلق الرحمة في جميع جوانب حياتها, فالرحمة لها دور أساسي وثابت في بناء أجيال الأمة الإسلامية، فما تفوق المسلمون على غيرهم إلا بحُسن أخلاقهم، واقتدائهم برسولهم الكريم. وقد دعانا رسولنا الكريم –صلى الله عليه وسلم– في كثير من احاديثه للتحلي بصفة الرحمة تجاه جميع المخلوقات, فهو نبي الرحمة وقد قال الله في حقه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨] لذا جاء هذا البحث لدراسة الاحاديث المشتملة على هذا الخلق العظيم في صحيحي البخاري ومسلم.

وقد كان منهجي في البحث اني خرجت الاحاديث من الصحيحين ولم أدرس رجال الحديث لأنَّهم ثقات كلهم, وبينت معاني الألفاظ الغريبة من مظانها, مع بيان المعنى العام للحديث معتمدا على كتب شروح الحديث معقبا بذكر أهم ما يُستفاد منه.

أما خطة البحث فقد قسمت بحثي بعد المقدمة على مبحثين وخاتمة, فكان المبحث الأول يتعلق بتعريف الرحمة, وفيه مطلبان:

الاول: الرحمة لغة

الثاني: الرحمة اصطلاحا

والمبحث الثاني: تناولت فيه أحاديث الرحمة في الصحيحين –دراسة تحليلية–وكان على خمسة مطالب:

المطلب الاول: جعل الله الرحمة في مئة جزء

المطلب الثاني: إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ

المطلب الثالث: مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ

المطلب الرابع: العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ

المطلب الخامس: مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ.

أما الخاتمة فقد أوجزت أهم ما توصلت اليه من نتائج.

والحمد لله رب العالمين, وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول: الرحمة لغة واصطلاحا

المطلب الاول: الرحمة لغة: بالنظر إلى المعاجم اللغوية نجد أنَّ ((الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يُقال من ذلك: رَحِمَه يَرْحَمُه, إذا رَقَّ له وتعطَّف عليه. والرُّحْم والمرحمة والرحمة بمعنى واحد)) [١].

والرحمة مشتقة الرَّحِم. والرَّحِمُ: بيْتُ مَنبِت الوَلَد ووِعاؤه في البَطْن. ومنه استعير الرحم للقرابة لخروجهم من رحم واحدة, فيقال: بينهما رَحِمٌ أي قَرابةٌ قريبة. [٢]

وقد عكس ابن فارس, فجعل القرابة هي الأصل, ومنه أُخذ رحم الأنثى. فقال: ((وَالرَّحِمُ: عَلَاقَةُ الْقَرَابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الْأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذَا، لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَكُونُ مَا يُرْحَمُ وَيُرَقُّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ)). [٣] وسمى اللهُ الغيثَ رحمةً؛ لأنه ينزل برحمته من السماء. وأُمُّ

رُحْمٍ وأُمّ الرُّحْمِ: مَكَّةُ. والمَرْحُومةُ: مِنْ أَسماء مَدِينَةُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَذْهَبُونَ بِذَلِكَ إِلى مُؤْمِنِي أَهلها[٤].

المطلب الثاني: الرحمة اصطلاحاً: للعلماءِ أقوال متقاربة في معنى الرحمة كلها تدور حول حالة من الرقة تقتضي إيصال الخير للمرحوم. وهذه بعض تعريفاتهم:

قال ابن القيم: ((الرحمة: صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك)) [٥].

وقال الجرجاني: ((الرحمة: هي إرادة إيصال الخير)) [٦].

وعرفها المناوي بقوله: ((الرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلانا، وإذا وصف به الباري فليس المراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة, فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان, فركز الله في طباع الناس الرقة وتفرد بالإحسان)) [٧].

وقال ابن عاشور في تعريفها: ((الرحمة: رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه. واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حيّ, بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق)) [٨].

المبحث الثاني: أحاديث الرحمة في الصحيحين

المطلب الاول: ((جعل الله الرحمة في مئة جزء))

قال البخاري: (حدثنا الحكم بن نافع البهراني أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنا سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: (جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الخَلْقُ،، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ).

تخريج الحديث

الحديث أخرجه البخاري [٩] ومسلم [١٠].

غريب الحديث

– الحافر: الحافر للفرس والحمار بمنزلة الظلف من البقر والشاة, والقدم من الإنسان, وهو مشتق من "حفر الأرض" لأنه يحفر الأرض بشدةِ وطئه عليها(١١).

المعنى العام للحديث

يعلم كل منّا رأفة الأم بولدها, ورحمة الدابة بصغيرها, وتعاطف الوحش على ابنه, وحضانة الطير لفراخه, وما هذا التراحم المثبت بين الخلق جميعاً بالنسبة إلى رحمة الله تعالى بعباده إلا جزءاً واحداً من مئة جزء, أمسك الله عنده وادخر لعباده تسعة وتسعين جزءاً, ومنحهم هذا الجزء وقسمه على كل الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى أن تقوم القيامة؛ ليتراحموا فيما بينهم, فمن نُزعت من قلبه الرحمة للمخلوقين عامة ولإصوله خاصة حُرم رحمة الله أرحم الراحمين(١٢).

قال القرطبي: (مُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّ أَنْوَاعَ النِّعَمِ الَّتِي يُنْعِمُ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ مِائَةُ نَوْعٍ فَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِنَوْعٍ وَاحِدٍ انْتَظَمَتْ بِهِ مَصَالِحُهُمْ وَحَصَلَتْ بِهِ مَرَافِقُهُمْ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَّلَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَقِيَ فَبَلَغَتْ مِائَةً وَكُلُّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بقوله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] فَإِن "رحِيما" مِنْ أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَبْقَى لَهُمْ حَظٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ لَا مِنْ جِنْسِ رَحَمَاتِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إِذَا كَمَّلَ كُلُّ مَا كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الرَّحَمَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦])(١٣)

ورحمة الله غير متناهية, لا مئة ولا مائتان, لكنها عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير, والقدرة في نفسها غير متناهية والتعلق غير متناه, لكن حصره في "مئة" على سبيل التمثيل تسهيلا للفهم, وتقليلا لما عند الخلق, وتكثيرا لما عند الله سبحانه وتعالى(١٤).

وأمّا مناسبة هذا العدد الخاص –مئة– ففيه أقوال(١٥):

–القول الأول: إنَّ هذا العدد الخاص أُطلق لإرادة التكثير والمبالغة فيه.

– القول الثاني: ثَبت أَن نَار الْآخِرَة تفضل نَار الدُّنْيَا بِتِسْعَة وَسِتِّينَ جُزْءا، فَإِذا قوبل كل جُزْء برحمة زَادَت الرحمات ثَلَاثِينَ جُزْءا فَيُؤْخَذ مِنْهُ أَن الرَّحْمَة فِي الْآخِرَة أَكثر من النقمَة فِيهَا، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي عن ربه –عز وجلّ–: (غلبت رَحْمَتي غَضَبي) (١٦).

– القول الثالث: إنَّ مناسبة هذا العدد الخاص يَحتمِل لِكَوْنِهِ مِثْلُ عَدَدِ دَرَجِ الْجَنَّةِ, وَالْجَنَّةُ هِيَ مَحَلُّ الرَّحْمَةِ, فَكَأَنَّ كُلَّ رَحْمَةٍ بِإِزَاءِ دَرَجَةٍ, وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى, فَمَنْ نَالَتْهُ مِنْهَا رَحْمَةٌ وَاحِدَةٌ كَانَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً, وَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ حَصَلَتْ لَهُ جَمِيعُ الْأَنْوَاع من الرَّحْمَة.

وقد خُصَّ الفرس بالذكر؛ لأنها أشد الحيوان المألوف نفوراً, الذي يعاين المخاطبون حركته مع ولده, ولِما في الفرس من الخفة والسرعة في التنقل, فإذا تجنب ذلك أن يصل الضرر منها إلى ولدها رحمة به كان غيرها من باب أولى(١٧).

أهم ما يرشد إليه الحديث

١– الحث على التراحم بين الخلق وإن كان غريزياً بين الأصول والفروع(١٨).

٢– فيه الحث على الإيمان، واتساع الرجاء في رحمات الله تعالى المدخرة, والذي يسمع بذلك يُحسن الظنَّ بالله تعالى, ويرجو رحمته(١٩).

٣– في الحديث إدخال السرور على المؤمنين، لأن العادة أن النفس يكمل فرحها بما وهب لها إذا كان معلوما مما يكون موعودا (٢٠).

٤– فيه إشارة إلى أن صفة الرحمة التي أنزلها الله تعالى إلى الأرض ليست خاصة بالنوع الإنساني فقط, بل هي شاملة لبني الإنس وغيرهم من المخلوقات.

المطلب الثاني: (إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ)

قال البخاري: (حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، وَمُحَمَّدٌ، قَالاَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا عَاصِمُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ، فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ، وَلْتَحْتَسِبْ»،

فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ – قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهَا شَنٌّ – فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ).

تخريج الحديث

الحديث أخرجه البخاري[٢١], ومسلم[٢٢].

غريب الحديث

١– قبض: قرب أن يُقبض, أي يموت, فهو في حالة القبض ومعالجة النزع[٢٣].

٢– تتقعقع: القعقعة: حكاية حركة الشيء يُسمع له صوت[٢٤].

٣– الشن: القربة البالية[٢٥].

المعنى العام للحديث

ذكر أسامة بن زيد بن حارثة –رضي الله عنه– في هذا الحديث أنَّ إحدى بنات النبي –صلى الله عليه وسلم– أرسلت إليه تقول: إنَّ ابني قد أُحتضر. واختلف العلماء في المقصود بابنة النبي –صلى الله عليه وسلم– وفي المقصود باينها, فقيل: هي زينب وابنها علي بن أبي العاص. وقيل: ابنتها: أمامة. وقيل: هي رقية وابنها عبد الله بن عثمان. وقيل: هي فاطمة وابنها محسن بن علي. والمشهور الأول[٢٦].

فطُلبَ من النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يحضر عند ابنها الذي قرب أن يُقبض, فهو في حالة النزْع, وقد نزل به الموت, ويعاني من آلامه وسكراته, فأرسل إليها يُبلغها السلام ويقول: (إنَّ لله ما أخذ, وله ما أعطى, وكل شيء عنده بأجل مسمى, فلتصبر ولتحتسب), ومَعْنَاهُ الْحَثُّ عَلَى الصَّبْرِ والتسليم لقضاء الله تعالى, وَتَقْدِيرُهُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي أَخَذَ مِنْكُمْ كَانَ لَهُ لَا لَكُمْ فَلَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مَا هو له فينبغي أن لا تَجْزَعُوا كَمَا لَا يَجْزَعُ مَنِ اسْتُرِدَّتْ مِنْهُ وَدِيعَةٌ أَوْ عَارِيَّةٌ, وَقَوْلُهُ "وله ما أعطى" معناه أَنَّ مَا وَهَبَهُ لَكُمْ لَيْسَ خَارِجًا عَنْ مِلْكِهِ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ وَقَوْلُهُ "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى" مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَأْتِ قَدِ انْقَضَى أَجَلُهُ الْمُسَمَّى فَمُحَالٌ تَقَدُّمُهُ أَوْ تَأَخُّرُهُ

عَنْهُ فَإِذَا عَلِمْتُمْ هَذَا كُلَّهُ فَاصْبِرُوا وَاحْتَسِبُوا مَا نَزَلَ بِكُمْ. فأمرها النبي –صلى الله عليه وسلم– بالصبر والاحتساب؛ فتحتسب الأجر على الله بصبرها؛ لأن من الناس من يصبر ولا يحتسب، فيصبر على المعصية ولا يتضجر، لكنه لا يؤمل أجرها على الله فيفوته بذلك خير كثير، لكنه إذا صبر واحتسب الأجر على الله فهذا هو الاحتساب(٢٧).

وقد ذكر الحافظ أنه قدم ذكر الأخذ على العطاء وإن كان العطاء متأخراً في الواقع لما يقتضيه المقام, والمعنى: إنّ الذي أخذه هو الذي كان قد أعطاه, و"ما" مصدرية في الموضعين. ويُحتمل أن تكون موصولة, أي لله ما أخذه من الأولاد وله ما أعطى منهم(٢٨).

ثم إنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– لما أعتذر عن الحضور أرسلت إليه مرة ثانية تقسم عليه أن يحضر, وجاء في بعض ألفاظ الحديث أَنَّهَا راجعته ثلاثاً, وأنه إنما قام في ثالث مرة, وكأنها ألحت عليه في ذلك دفعا لما يظنه بعض أهل الجهل أنها ناقصة المكانة عنده، أو ألهمها الله تعالى أن حضور نبيه عندها يدفع عنها ما هي فيه من الألم ببركة دعائه وحضوره، فحقق الله ظنها, والظاهر أنه امتنع أولا مبالغة في إظهار التسليم لربه، أو ليبين الجواز في أن من دعي لمثل ذلك لم تجب عليه الإجابة بخلاف الوليمة مثلا(٢٩) .

فقام النبي –صلى الله عليه وسلم– ومعه سعد بن عبادة, ومعاذ بن جبل, وأُبي بن كعب, وزيد بن ثابت, وعبادة بن الصامت, وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم. فمشوا إلى أن وصلوا إلى بيتها فاستأذنوا فأذن لهم فدخلوا، فناولوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الصبي فأقعده في حجره, وهذا يدل على صغره, (ونفسه تقعقع كأنها شن) أي: إنَّ روحه تضطرب وتتحرك لها صوت حشرجة كصوت الماء إذا أُلقي في القربة القديمة البالية. فبكى النبي –صلى الله عليه وسلم– وتساقطت دموعه وهذا مما جُبل عليه –عليه الصلاة والسلام– من الرحمة والشفقة, ولا شك أنَّ هذا المقام مقام مؤثر. فَقَالَ سَعْدٌ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ وفي رواية: مَا هَذَا الْبُكَاءُ فاستغرب الصحابي من هذا البكاء الذي صدر من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ) أَيْ: أَثَرٌ مِنْ آثَارِهَا، وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَيِ: التَّبْكِيَةُ مِنْ رِقَّةِ الْقَلْبِ. خَلَقَها اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ.

فظَنَّ سَعْدٌ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْبُكَاءِ حَرَامٌ، وَأَنَّهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– نُسِّيَ، فَأَعْلَمَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّ مُجَرَّدَ الْبُكَاءِ وَدَمْعَ الْعَيْنِ لَيْسَ بِحَرَامٍ، وَلَا مَكْرُوهٍ، بَلْ هُوَ رَحْمَةٌ وَفَضِيلَةٌ، وَإِنَّمَا الْمُحَرَّمُ النَّوْحُ وَالنَّدْبُ، وَشَقُّ الْجُيُوبِ، وَضَرْبُ الْخُدُودِ(٣٠).

ثم قال:(وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) "والرحماء" جمع رحيم وهو من صيغ المبالغة, ومقتضاه أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة وتحقق بها, بخلاف من فيه أدنى رحمة، لكن ثبت في حديث عبد الله بن عمرو أنّ (الراحمون يرحمهم الرحمن) "والراحمون" جمع راحم فيدخل كل من فيه أدنى رحمة(٣١).

أهم ما يرشد إليه الحديث

يُؤخذ من الحديث(٣٢):

١– جواز استحضار ذوي الفضل رجاء بركتهم ودعاءهم, وجواز القسم عليهم لذلك. ولا ينبغي لهم أن يقطعوا الناس عن فضلهم ولو رُدُّوا أول مرة.

٢– استحباب أمر صاحب المصيبة بالصبر قبل وقوع الموت؛ ليقع وهو مستشعر بالرضا, مقاوم للحزن بالصبر.

٣– استحباب تقديم السلام على الكلام.

٤– جواز الإلحاح في الطلب, وجواز الرجاء في مثل هذه الأمور.

٥– الحث على عيادة المريض, ولو كان مفضولاً, أو صبياً صغيراً.

٦– ومن قيام سعد ومعاذ يؤخذ جواز المشي إلى التعزية والعيادة بغير إذن صاحبها بخلاف الوليمة.

٧– جواز البكاء على الميت من غير نوح ونحوه.

٨– الترغيب في الشفقة على خلق الله والرحمة لهم, والترهيب من قساوة القلب وجمود العين.

المطلب الثالث: (مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ)

قال البخاري: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ

الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»

تخريج الحديث

الحديث أخرجه البخاري(٣٣), ومسلم(٣٤).

المعنى العام للحديث

تتمثل الإنسانية الحقة في العطف والمودة، واللطف والمحبة بين الناس، وأعلى درجاتها ما يكون بين الرجل والأطفال، فإنها آنذاك خالصة بريئة، لا تستهدف مقابلا، ولا ترجو من الطفل نفعا، إنها آنذاك نابعة من القلب والوجدان والإحساس المرهف، والصدر الحنون ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في هذا العطف، فقد كان يحمل الصبيان، ويتحمل أذاهم بصدر رحب، ونفس راضية، يركبون على ظهره في سجوده، فيظل صلى الله عليه وسلم ساجدا إشفاقا عليهم، وخوفا عليهم من الوقوع، ويبولون على ثيابه، فينزعج من حوله من الصحابة، وتحاول أم الطفل خطفه، فيقول: دعوه حتى يتم بوله ولا تقطعوه(٣٥).

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– مجبول على الشفقة والحنو والرحمة واللطف والإحسان, قال تعالى:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨], ومن رحمته –صلى الله عليه وسلم– أنّه كان يُقبل الصبيان, وهذا مشهد كان أمام رجل من الأعراب, وهو الأقرع بن حابس التميمي, فقبَّل النبي –صلى الله عليه وسلم– الحسن بن علي –رضي الله عنهما– وكان صغيراً, فلما رأى الأقرع بن حابس ذلك المشهد قال: (إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا)؛ وذلك لما في أهل البادية من الغلظ والجفاء, فهم أقرب في ذلك الوقت إلى طبع البادية, فما اعتاد محبة الطفل, والمسح على رأسه, والحياة عندهم فيها شيء من القسوة, وهذا لا يقدح فيه. فنظر إليه رسول الله متعجباً من تلك الغلظة الناشيء عنها عدم الشفقة على الأولاد الناشيء عنها عدم تقبيلهم وحملهم

وشمهم فقال –عقب نظره إليه–: (مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ). بالرفع والجزم فيهما, فالرفع على الخبر, والجزم على أنّ: من شرطية[٣٦].

قَالَ السُّهيْلي: (جعْله على الْخَبَر أشبه لسياق الْكَلَام لِأَنَّهُ سيق للرَّدّ على من قَالَ: إِن لي عشرَة من الْوَلَد ...، أَي: الَّذِي يفعل هَذَا الْفِعْل لَا يُرحم... وَقيل: يجوز الرّفْع فِي الجزأين والجزم فيهمَا، وَالرَّفْع فِي الأول والجزم فِي الثَّانِي وَبِالْعَكْسِ) [٣٧].

وقال الطيبي: (يجوز فيه الجزم والرفع على أن "من" موصولة أو شرطية. ولعل وضع الرحمة في الأولى للمشاكلة، فإن المعنى: من لم يشفق على الأولاد لا يرحمه الله تعالى، وأتى بالعام لتدخل فيه الشفقة دخولا أوليا) [٣٨]. والثاني أنسب وأتم, وفائدته أعم؛ ولهذا حذف المفعول ليذهب الفهم كل مذهب[٣٩].

ومعنى هاتان الجملتان: يحتمل أن يكون من لا يرحم غيره بأيّ نوع من أنواع الإحسان لا يحصل له هذا الثواب كما قال تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]. ويحتمل أن يكون المراد من لا تكون فيه رحمة الإيمان في الدنيا لا يُرحم في الآخرة، أو من لا يَرحم نفسه بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه لا يرحمه الله لأنه ليس له عنده عهد، فتكون الرحمة الأولى بمعنى الأعمال، والثانية بمعنى الجزاء، أي لا يثاب إلا من عمل صالحاً. ويحتمل أن تكون الأولى الصدقة, والثانية البلاء: أي لا يسلم من البلاء إلا من تصدق، أو من لا يرحم الرحمة التي ليس فيها شائبة أذى لا يُرحم مطلقاً، أو لا ينظر الله بعين الرحمة إلا لمن جعل في قلبه الرحمة ولو كان عمله صالحاً. وينبغي للمرء أن يتفقد نفسه في هذه الأوجه كلها، فما قصر فيه لجأ إلى الله تعالى في الإعانة عليه[٤٠].

قال الطيبي (الرحمة الثانية محمولة على الحقيقة، والأولى على المجاز؛ لأن الرحمة من الخلق: التعطف والرقة، وهو لا يجوز على الله تعالى. ومن الله تعالى: الرضا عمن رحمه؛ لأن من رقَّ له القلب فقد رضي عنه، أو الإنعام وإرادة الخير؛ لأن المَلك إذا عطف على رعيته ورق لهم أصابهم بمعروفه وإنعامه)[٤١].

وقال القسطلاني: ("من لا يَرحم" الخلق من مؤمن وكافر وبهائم مملوكة وغيرها كأن يتعاهدهم بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب في الدنيا "لا يُرحم" في الآخرة) [٤٢].

أهم ما يرشد إليه الحديث

١- دلَّ على أنَّ تقبيل الولد الصغير وحمله والتحفي به مما يستحق به رحمة الله.

٢-وفي جواب النبي صلى الله عليه وسلم للأقرع إشارة إلى أن تقبيل الولد وغيره من الأهل والمحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة، لا للذة والشهوة، وكذا الضم والشمة والمعانقة.

٣- الحث على الرحمة بجميع الخلق من مؤمن وكافر وبهائم[٤٣].

المطلب الرابع: (العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ)

قال البخاري: (حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَلْحَلَةَ، عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا المُسْتَرِيحُ وَالمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: «العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلاَدُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»).

تخريج الحديث

الحديث أخرجه البخاري[٤٤] ومسلم[٤٥].

غريب الحديث

١- "مستريح ومستراح": يقال: أراح الرجل واستراح: إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء[٤٦].

٢- النصب: التعب والمشقة[٤٧].

٣- الدواب: دبَّ على الأرض يدب دبيباً: كل ماشٍ عل الأرض. والاسم العام للدابة: لما يُركب[٤٨].

المعنى العام للحديث

في الحديث الشريف وضح رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنَّ عاقبة الموتى قسمان: إمّا مستريح أو مستراح منه. فالواو فيه بمعنى "أو"، وهي للتقسيم. فالمستريح: العبد المؤمن, ويحتمل أن يراد به التقى خاصة أي المؤمن الكامل، ويحتمل كل مؤمن. فالمؤمن يصير إلى رحمة الله وما أعده الله له من الجنة والنعمة و"يستريح" أي يجد الراحة بالموت من نصب الدنيا وتعبها ومشقتها وأذاها وما فيها من عناء. قال مسروق: (ما غبطت شيئاً لشيء كمؤمن في لحده أمن من عذاب الله واستراح من الدنيا) [٤٩].

وأمَّا المستراح منه: فهو العبد الفاجر أي الكافر، أو ما يعمه، والعاصي. قيل: الظاهر حمله على الكافر لمقابلته بالمؤمن، لكنَّ آخر الحديث يدل على أن المراد بالفاجر ما هو أعم من الكافر فإن الظلم والفساد والفجور يحصل من المسلم أيضاً كما يحصل من الكافر فيستريح العباد والبلاد من الفاجر المسلم كما تستريح من الفاجر الكافر، واستراحة العباد من جهة ظلمة وقسوته عليهم, ومن جهة أنه حين فعل منكراً إن منعوه آذاهم وعاداهم, وإن سكتوا عنه أضر بدينهم ودنياهم فأثموا[٥٠].

واستراحة البلاد: لما يأتي به من المعاصي, فإنه يحصل به الجدب والقحط فيقتضي هلاك الحرث والنسل, أو لما يقع له من غصبها ومنعها من حقها وصرفه في غير وجهه. واستراحة والشجر: لقلعه إياها غصباً, أو غصب ثمرها, أو بما يحصل من الجدب لشوم معاصيه. واستراحة والدواب: لاستعماله لها فوق طاقتها وتقصيره في علفها وسقيها أو للجدب بمعاصيه[٥١].

قال النووي: (معنى استراحة العباد من الْفَاجِرِ انْدِفَاعُ أَذَاهُ عَنْهُمْ وَأَذَاهُ يَكُونُ مِنْ وُجُوهٍ مِنْهَا ظُلْمُهُ لَهُمْ وَمِنْهَا ارْتِكَابُهُ لِلْمُنْكَرَاتِ فَإِنْ أَنْكَرُوهَا قَاسَوْا مَشَقَّةً مِنْ ذَلِكَ وَرُبَّمَا نَالَهُمْ ضَرَرُهُ وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ أَثِمُوا وَاسْتِرَاحَةُ الدَّوَابِّ مِنْهُ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يؤذيها ويضربها وَيُحَمِّلُهَا مَا لَا تُطِيقُهُ وَيُجِيعُهَا فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَاسْتِرَاحَةُ الْبِلَادِ وَالشَّجَرِ فَقِيلَ لِأَنَّهَا تُمْنَعُ الْقَطْرَ بِمُصِيبَتِهِ ولِأَنَّهُ يَغْصِبُهَا وَيَمْنَعُهَا حَقَّهَا مِنَ الشُّرْبِ وَغَيْرِهِ) [٥٢].

وقال الطيبي: (وأما استراحة البلاد، والأشجار؛ فإن الله تعالي بقدره يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويحيى به الأرض والشجر والدواب، بعد ما حبس بشؤم ذنوبه الأمطار) [٥٣].

ولا مانع في أنّ جميع ما ذكره العلماء من أنواع الأذى صالح للدخول في معنى الحديث, فالأولى حمل الحديث على جميع أنواع الأذى.

أهم ما يرشد إليه الحديث

١- يؤخذ من الحديث أن الموت خير للمؤمن الطائع وللفاجر، أما المؤمن فيستريح من مشقة الدنيا وتعبها، أما الفاجر فيستريح منه العباد والشجر والدواب بانقطاع أذاه عنهم.

٢- في مضمون راحة المؤمن من نصب الدنيا راحته ببشرى الله له بما له من الخير, ولا تصح الراحة من الدنيا إلا بهذه الراحة الأخرى(٥٤).

٣- حرمة التعدي -بأيِّ شكل كان- على العباد والشجر والدواب.

المطلب الخامس: (وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ)

قال مسلم: (حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى التَّمِيمِيُّ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ الْهَمْدَانِيُّ - وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى، قَالَ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا وقَالَ الْآخَرَانِ: حَدَّثَنَا - أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ).

تخريج الحديث

الحديث أخرجه مسلم(٥٥).

غريب الحديث

١- نفس: من التنفس, أزال وفرَّج(٥٦).

٢- الكُربة: الهم والغم, وهي ما أهمَّ النفس, وغمَّ القلب(٥٧).

٣- يلتمس: يطلب ويبتغي[٥٨].

٤- السكينة: الطمأنينة والوقار. وقيل: الرحمة[٥٩].

٥- غشيتهم: غطتهم وشملتهم, وأحاطت بهم من كل جهة[٦٠].

٦- حفتهم: طافت بهم, ودارت حولهم[٦١].

المعنى العام للحديث

هذا الحديث عَظِيمٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعُلُومِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْآدَابِ, فِيهِ فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ وَنَفْعِهِمْ بِمَا تَيَسَّرَ مِنْ عِلْمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مُعَاوَنَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِمَصْلَحَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ. فقوله –صلى الله عليه وسلم– (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا) والكربة: هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبها في الكرب، وهو غم يأخذ بالنفس، وتنفيسها أن يخفف عنه منها، وفي حديث ابن عمر –رضي الله عنه– (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ) [٦٢]. والتفريج أعظم، وهو أن يزيل عنه الكربة فتفرج عنه كربته ويزول همه وغمه، فجزاء التنفيس التنفيس، وجزاء التفريج التفريج[٦٣]. قال النووي: (وَيَدْخُلُ فِي كَشْفِ الْكُرْبَةِ وتفريجها من أزالها بماله أو جاهه أو مساعدته, والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها بإشارته وَرَأْيِهِ وَدَلَالَتِهِ) [٦٤].

وقوله (نفس الله عنه): أي كشف وأزال. فكأنه فتح مداخل الأنفاس، فهو مأخوذ من "أنت في نفس" أي سعة، كأن من كان في كربة سد عنه مداخل الأنفاس، فإذا فرج عنه فتحت، وهذا يرجع إلى أن الجزاء من جنس العمل[٦٥].

وقوله: "كربة من كربات يوم القيامة" فهذا من باب الجزاء من جنس العمل, وكربات الآخرة أشد: إنها كربة الوقوف والحساب, وكربة السؤال والعقاب, فرّجها الله عنه بفضله, فما أعظمه من أجر وما أجزله من ثواب.

وقوله: "ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة" وهذا أيضاً الجزاءُ فيه من جنس العمل، والعمل هو التيسير على المُعسر، وذلك بإعانته على إزالة عُسرته، فإن كان مَديناً ساعده بإعطائه ما يقضي به دينه، وإن كان الدَّين له أنظره إن لم يُبْرئه منه، والإبراء خيرٌ من الإنظار؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٦٦] وقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أنَّ

الجزاءَ على التيسير تيسيرٌ يحصل في الدنيا والآخرة. وَهَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِعْسَارَ قَدْ يَحْصُلُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ عَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى غَيْرِهِمْ [٦٧]، وَقَالَ: {وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}[٦٨]

وقوله: "من ستر مسلما" أي ستر بدنه أو عيبه إذا رآه على قبيح فلم يظهره للناس, ستره الله في الدنيا والآخرة, أي لم يفضحه باظهار عيوبه وذنوبه, وهذا أيضا من باب الجزاء من جنس العمل. لكن السَّتْرُ الْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ هُنَا فَالْمُرَادُ بِهِ السَّتْرُ عَلَى ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مَعْرُوفًا بِالْأَذَى وَالْفَسَادِ فَأَمَّا المعروف بذلك فيستحب أن لا يُسْتَرَ عَلَيْهِ بَلْ تُرْفَعَ قَضِيَّتَهُ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ إِنْ لَمْ يَخَفْ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةً لِأَنَّ السَّتْرَ عَلَى هَذَا يُطْمِعُهُ فِي الْإِيذَاءِ وَالْفَسَادِ وَانْتَهَاكِ الْحُرُمَاتِ وَجَسَارَةِ غَيْرِهِ عَلَى مِثْلِ فِعْلِهِ[٦٩].

ثم قال –صلى الله عليه وسلم– كلمة جامعة مانعة: "والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه" فمن أعان أخاه وسعى –حسب طاقته– في قضاء حاجته سواء كان ذلك بقلبه أو بدنه أو بهما لدفع المضار أو جلب المنافع اذ الكل عون كان الله في عونه, أي ان المكافأة على ذلك بجنسها من العناية الالهية وهي أن الله تعالى يعينه وييسر له قضاء حاجاته كما يسعى هو في قضاء حاجة اخوانه[٧٠].

وقوله: " ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنة" فيه الحث على طلب العلم الشرعي وسلوك الطرق الموصلة الى تحصيله سواء كان ذلك الطريق حسيا كمشي وسفر لطلبه وملازمة العلماء والاخذ منهم أو كان كريقا معنويا مثل حفظه ودراسته وكتابته والجزاء على ذلك من الله تسهيل الطريق التي يصل بها طالب العلم إلى الجنَّة، وذلك يكون بإعانته على تحصيل ما قصد، فيكون بذلك محصِّلاً للعلم، ويكون أيضاً بإعانته على العمل بما علمه من أحكام الشريعة، وذلك يفضي به إلى دخول الجنَّة[٧١].

"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله" أي المساجد فان بيوت الله هي المساجد. "يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم" أي يشتركون في قراءة بعضهم على بعض, وفيه الحثُّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه، ويكون ذلك بقراءة أحد المجتمعين والباقون يسمعون، وبقراءتهم بالتناوب ليقوِّم بعضُهم بعضاً في القراءة، وإذا كان فيهم

عالم بتفسيره علَّمهم، " إلاَّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرَّحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمَن عنده" والجزاء على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه أربعة أمور، هي: نزول السكينة عليهم والطمأنينة، وأنَّ الرحمةَ تغشاهم، أي تشملهم وتغطِّيهم، وأنَّ الملائكة تحفُّهم أي: تحيط بهم، وأنَّ الله تعالى يذكرهم عند الملائكة[٧٢]. وهذه الخصال الأربعة لكل مجتمع على ذكر الله كما في صحيح مسلم عن ابي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن لأهل ذكر الله أربعا: تنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة وتحف بهم الملائكة ويذكرهم الرب فيمن عنده" [٧٣].

وقوله: " ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه" أي من كان عمله ناقصا لم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال, فينبغي ألّا يتكل على شرف النسب وفيلة الآباء, ويقصر في العمل لأن من أخره عمله عن دخول الجنة لم يسرع به نسبه الى دخولها؛ لأن المعتبر في ذلك الايمان والتقوى[٧٤]. كما قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ }[٧٥]

أهم ما يرشد اليه الحديث

في الحديث فوائد عدة منها:

١– فضل قضاء حاجات المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم, أو جاه أو مال أو نصح أو دلالة على الخير, أو اعانة.

٢– الترغيب في تنفيس الكرب عن المسلمين, كاقراض المال أو فك أسر, أو الوقوف معهم في محنتهم.

٣– ان التنفيس والتفريج عن المسلمين من أسباب التنفيس والنجاة من كرب يوم القيامة, وهي أشد وأعظم.

٤– ان الجزاء من جنس العمل, فالعمل تنقيس كربة والجزاء تنفيس كربة, والعمل تيسير والجزاء تيسير, والعمل ستر والجزاء ستر.

٥– الترغيب في التيسير على المعسرين, وستر عيوب المسلمين, وان الجزاء على ذلك تيسير وستر في الاخرة.

٦– بيان فضل طلب العلم الشرعي والحث على طلبه بشرط ان يكون لله عز وجل.

٧- فضل الاجتماع في المساجد لتلاوة القران وتدارسه.

٨- ان شرف النسب بدون عمل صالح لا ينفع صاحبه عند الله -عز وجل- بل الايمان والعمل الصالح هما سبب دخول الجنة.

الخاتمة

بعد الانتهاء من البحث بتوفيق الله وعونه يمكن أن نجمل أهم ما توصلت إليه من نتائج:

١- معاني الرحمة كلها تدور حول حالة من الرقة تقتضي إيصال الخير للمرحوم.

٢- الحث على التراحم بين الخلق وإن كان غريزياً بين الأصول والفروع, وأن صفة الرحمة التي أنزلها الله تعالى إلى الأرض ليست خاصة بالنوع الإنساني فقط, بل هي شاملة لبني الإنس وغيرهم من المخلوقات.

٢- الحث على الإيمان، واتساع الرجاء في رحمات الله تعالى المدخرة, والذي يسمع بذلك يُحسن الظنَّ بالله تعالى, ويرجو رحمته.

٣- أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة وتحقق بها, بخلاف من فيه أدنى رحمة.

٤- من لا يَرحم الخلق من مؤمن وكافر وبهائم مملوكة وغيرها كأن يتعاهدهم بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب في الدنيا لا يُرحم في الآخرة.

٥- الترغيب في تنفيس الكرب عن المسلمين, كاقراض المال أو فك أسر, أو الوقوف معهم في محنتهم فان ذلك من أسباب التنفيس والنجاة من كرب يوم القيامة, وهي أشد وأعظم.

٦- الحثُّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة القرآن وتدارسه, والجزاء على ذلك الاجتماع أربعة أمور، هي: نزول الطمأنينة، وأنَّ الرحمةَ تغطِّيهم، وأنَّ الملائكة تحيط بهم، وأنَّ الله تعالى يذكرهم عند الملائكة. والله تعالى أعلم.

الهوامش

(١) معجم مقاييس اللغة, لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(٣٩٥هـ), تحقيق: عبد السلام هارون, دار الفكر, بيروت, ١٣٩٩هـ, ٤٩٨/٢.

(٢) ينظر: العين, الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٠هـ), تحقيق: مهدي المخزومي, ابراهيم السامرائي, دار ومكتبة الهلال, ٢٢٤/٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة, ٤٩٨/٢.

(٤) ينظر : لسان العرب, لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور(٧١١هـ), دار صادر, بيروت, ط٣, ١٤١٤هـ, ٢٣٠/١٢.

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان, لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١), دار المعرفة, بيروت, ط٢, ١٣٩٥هـ, ١٧٤/٢.

(٦) التعريفات, علي بن محمد بن علي الجرجاني (٨١٦هـ), دار الكتب العلمية, بيروت, ط١, ١٤٠٣هـ, ١١٠.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد عبد الرؤوف بن علي المناوي (ت١٠٣١هـ), عالم الكتب, القاهرة, ط١, ١٤١٠هـ, ١٧٦.

(٨)التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد», محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ), الدار التونسية للنشر, تونس, ١٩٨٤هـ, ٢٤/٢٦.

(٩)صحيح البخاري المسمى "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه", أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت٢٥٦هـ), تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر, دار طوق النجاة, ط١, ١٤٢٢هـ, كتاب الآداب, باب جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ, ٨/ ٨, برقم(٦٠٠٠).

(١٠)صحيح مسلم المسمى " المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم", أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ), تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي, بيروت, ٤/ ٢١٠٨, برقم,٢٧٥٢.

(١١)مقاييس اللغة, ٨٥/٢. النهاية في غريب الحديث والأثر, أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير (ت٦٠٦هـ), تحقيق: طاهر أحمد الزاوى, محمود محمد الطناحي, المكتبة العلمية, بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م, ٤٠٦/١.

(١٢)الإفصاح عن معاني الصحاح, أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد الشيبانيّ(ت٥٦٠هـ), تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد, دار الوطن, ١٤١٧هـ, ٧٤/٦.

(١٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري, أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي(ت٨٥٢هـ), دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ, ١٠/ ٤٣٢.

(١٤)إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري, أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني(ت ٩٢٣هـ), المطبعة الكبرى الأميرية، مصر, ط٧, ١٣٢٣ هـ, ٩/ ١٩.

(١٥) ينظر: فتح الباري, ١٠/ ٤٣٢. عمدة القاري شرح صحيح البخاري, أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني (ت٨٥٥هـ), دار إحياء التراث العربي, بيروت, ١٠١/٢٢.

(١٦) صحيح البخاري, كتاب التوحيد, باب قوله تعالى (بل هو قرآن مجيد), برقم(٧٥٥٣), ١٦٠/٩.

(١٧)التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير, محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني الصنعاني(ت١١٨٢هـ), تحقيق: محمد صبحي, مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض, المملكة الْعَرَبيَّة السعودية, ط١، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢ م, ٤/ ٤٣٤.

(١٨)المنهل الحديث في شرح الحديث, موسى شاهين لاشين, دار المدار الإسلامي, ط١, ٢٠٠٢ م, ١٦٤/٤.

(١٩)فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٤٣٣.

(٢٠)مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح, أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري (ت١٤١٤هـ), إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء, الجامعة السلفية, بنارس, الهند, ط٣, ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م, ٨/ ٧٩.

(٢١)صحيح البخاري, كتاب الجنائز, بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعَذَّبُ المَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ٢/ ٧٩, برقم (١٢٨٤)

(٢٢)صحيح مسلم, كتاب الجنائز, باب البكاء على الميت, ٢/ ٦٣٥, برقم (٩٢٣).

(٢٣)النهاية, ابن الأثير, ٦/٤.

(٢٤)مقاييس اللغة, ابن فارس, ١٤/٥. النهاية, ابن الأثير, ٨٨/٤.

(٢٥)العين, الفراهيدي, ٦/ ٢١٩.

(٢٦)ينظر: فتح الباري, ابن حجر, ١٥٦/٣. عمدة القاري, العيني, ٧٣/٨.

(٢٧)ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج, أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦هـ), دار إحياء التراث العربي, بيروت, ط٢، ١٣٩٢هـ, ٦/ ٢٢٥. شرح رياض الصالحين ١/ ٢٠٧.

[٢٨]ينظر: فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٥٧).

[٢٩]ينظر: المصدر نفسه, ١٥٧/٣.

[٣٠]ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح, أبو الحسن علي بن محمد الهروي القاري (ت١٠١٤هـ), دار الفكر، بيروت, لبنان, ط١, ١٤٢٢هـ, ٢٠٠٢م, ٣/ ١٢٣٢. فتح المنعم شرح صحيح مسلم, موسى شاهين لاشين, دار الشروق, ط١, ١٤٢٣ هـ, ٢٠٠٢م, ٤/ ١٩٧.

[٣١]ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري, أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي (ت٩٢٣هـ), المطبعة الكبرى الأميرية، مصر, ط٧, ١٣٢٣ هـ, ٢/ ٤٠٢.

[٣٢]ينظر: فتح الباري, ابن حجر, ١٥٨/٣. عمدة القاري, العيني, ٧٥/٨. فتح المنعم, لاشين ٤/ ١٩٦.

[٣٣]صحيح البخاري, كتاب الأدب, باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته, ٨/ ٧, برقم (٥٩٩٧).

[٣٤]صحيح مسلم, كتاب الفضائل, باب رحمته –صلى الله عليه وسلم– الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك, ٤/ ١٨٠٨, برقم (٢٣١٨).

[٣٥]ينظر: فتح المنعم, لاشين, ٢/ ٢٤٧.

[٣٦]ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين, محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (ت١٠٥٧هـ), دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت, لبنان, ط٤, ١٤٢٥ هـ, ٢٠٠٤م, ٣/ ٩.

[٣٧]عمدة القاري, العيني, ٢٢/ ١٠٠.

[٣٨]شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن), شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت٧٤٣هـ), تحقيق: عبد الحميد هنداوي, مكتبة نزار مصطفى الباز, مكة المكرمة, الرياض, ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م, ١٠/ ٣٠٥٨.

[٣٩] ينظر: مرقاة المفاتيح, القاري, ٧/ ٢٩٦٤.

[٤٠]ينظر: فتح الباري, ابن حجر, ١٠/ ٤٤٠. دليل الفالحين, الصديقي, ٣/ ٩.

[٤١]شرح المشكاة, الطيبي, ١٠/ ٣١٧٤.

[٤٢]إرشاد الساري, القسطلاني, ٩/ ٢٣.

[٤٣]ينظر: فتح المنعم, لاشين, ٩/ ١٦٠.

[٤٤]صحيح البخاري, كتاب الرقاق, باب سكرات الموت, ٨/ ١٠٧, برقم (٦٥١٢).

[٤٥]صحيح مسلم, كتاب الجنائز, باب ما جاء في مستريح ومستراح منه, ٦٥٦/٢, برقم (٩٥٠).

[٤٦]ينظر: مقاييس اللغة, ابن فارس, ٤٥٥/٢.

(٤٧)ينظر: النهاية, ابن الأثير, ٦٢/٥.

(٤٨)ينظر: العين, الفراهيدي, ١٣/٨.

(٤٩)مرعاة المفاتيح, المباركفوري, ٥/ ٢٩٣.

(٥٠)ينظر: ارشاد الساري, القسطلاني, ٢٩٣/٩.

(٥١)ينظر: عمدة القاري, العيني, ٩٦/٢٣ . مرعاة المفاتيح, المباركفوري, ٥/ ٢٩٣.

(٥٢)المنهاج, النووي, ٧/ ٢١.

(٥٣)ينظر: شرح المشكاة, الطيبي, ٤/ ١٣٦٤.

(٥٤)ينظر: إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم, عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، (ت٥٤٤هـ), تحقيق: يحْيَى إِسْمَاعِيل, دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر, ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م, ٤١١/٣.

(٥٥)صحيح مسلم, كتاب العلم, باب فضل الإجتماع على تلاوة القران وعلى الذكر, ٢٠٧٤/٤, برقم(٢٦٩٩).

(٥٦)ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية, أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت٣٩٣هـ), تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار, دار العلم للملايين, بيروت, ط٤, ١٤٠٧ هـ, ١٩٨٧ م, ٩٨٥/٣.

(٥٧)ينظر: مقاييس اللغة, ابن فارس, ١٧٤/٥.

(٥٨)ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس, أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي (ت١٢٠٥هـ), دار الهداية, ٤٨٧/١٦.

(٥٩)ينظر: النهاية, ابن الأثير: ٣٨٥/٢.

(٦٠)ينظر: المصدر نفسه: ٣٦٩/٣.

(٦١)ينظر: المصدر نفسه, ٤٠٨/١.

(٦٢)صحيح البخاري, كتاب المظالم, باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ, ٣/ ١٢٨, برقم (٢٣١٠).

(٦٣)ينظر: مرعاة المفاتيح, المباركفوري, ١/ ٣٠٧.

(٦٤)المنهاج, النووي, ١٦/ ١٣٥.

(٦٥)ينظر: مرعاة المفاتيح, المباركفوري, ١/ ٣٠٧.

(٦٦)سورة البقرة: ٢٨٠.

[٦٧]ينظر: فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله (ص: ١٢٢)

[٦٨]الفرقان: ٢٦.

[٦٩]ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٣٥).

[٧٠]ينظر: مرقاة المفاتيح, القاري, ١/ ٢٨٧.

[٧١]ينظر: فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله (ص: ١٢٣).

[٧٢]ينظر: فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله (ص: ١٢٢)

[٧٣]صحيح مسلم, كتاب العلم, باب فضل الاجتماع على تلاوة القران: ٤/٢٠٧٤.

[٧٤]ينظر: مرعاة المفاتيح, المباركفوري: ١/٣٠٩.

[٧٥] سورة المؤمنون: ١٠١.